إدوار سعيد

١٩٣٥ – ٢٠٠٣

قدم إدوار سعيد في كتابه "خارج المكان" قراءة موثقة وممتعة لسيرته وسيرة عائلته المقدسية، بدا لي فيها، أي السيرة، وكأنه يقرأ، عن قصد وعن غير قصد، سيرة الشعب الفلسطيني بالتحديد. فهو إذ يصر على أنه "خارج المكان" ولادة وسيرة حياة، أي أنه ابن المنافي جميعها، بما في ذلك في الوطن ذاته الذي ولد فيه وغادره بالقسر وهو في أول شبابه، فإنه يشير في الآن ذاته إلى ما هو عليه شعبه الفلسطيني على امتداد نصف قرن على الأقل. فقد صدر الكتاب في عام ١٩٩٨، وتحديداً في الذكرى الخمسين للنكبة. هذه الخلاصة التي انتهيت إليها في قراءتي للكتاب كانت تتكون عندي بالتدريج وأنا أتابع فيها الأحداث والوقائع والتحولات التي كانت تأتي بها الأزمنة خلال ذلك النصف الثاني من القرن العشرين. ذهبت بهدوء وبشغف مع إدوار في تجواله عبر المنافي التي جعلته يعلن من دون تردد بأنه، بصفته خارج المكان الطبيعي لأي إنسان في وطنه، فلسطيني ولبناني ومصري وأميركي في الآن ذاته. يقول إدوار في هذا الصدد في مقدمة الطبعة الإنجليزية للكتاب: "هذا الكتاب هو سجل لعالم مفقود أو منسيّ. منذ عدة سنوات تلقيت تشخيصاً طبياً بدا مبرماً، فشعرت بأهمية أن أخلف سيرة ذاتية عن حياتي في العالم العربي، حيث ولدت وأمضيت سنواتي التكوينية، كما في الولايات المتحدة حيث ارتدت المدرسة والكلية والجامعة. العديد من الأمكنة والأشخاص التي أستذكرها هنا لم تعد موجودة، على الرغم من أني أندهش باستمرار لاكتشافي إلى أي مدى أستبطنها، وغالباً بأدق تفاصيلها بل بتشخيصاتها المروعة".

ويقول في مطلع الفصل الأول من الكتاب: "تخترع جميع العائلات أباءها وأبناءها وتمنح كل واحد منهم قصة وشخصية ومصيراً، بل إنها تمنحه لغته الخاصة. وقع خطأ في الطريقة التي تم بها اختراعي وتركيبي في عالم والديّ وشقيقاتي الأربع. فخلال القسط الأوفر من حياتي المبكرة لم أستطع أن أتبين ما إذا كان ذلك ناجماً عن خطأي المستمر في تمثيل دوري أو عن عطب كبير في كياني ذاته. وقد

تصرفت أحياناً تجاه الأمر بمعاندة وفخر. وأحياناً أخرى وجدت نفسي كائناً يكاد أن يكون عديم الشخصية وخجولاً ومتردداً وفاقداً للإرادة. غير أن الغالب كان شعوري الدائم أني في غير مكاني. هكذا كان يلزمني قرابة خمسين سنة لكي أعتاد على 'إدوارد' وأخفف من الحرج الذي يسببه لي هذا الإسم الإنكليزي الأخرق الذي وضع كالنير على عاتق 'سعيد'، اسم العائلة العربي القح...".

من هذا الوصف لبداية تكوّن سيرته يتابع إدوار تجواله في تاريخه وتاريخ شعبه الفلسطيني لتتحد سيرته مع سيرة شعبه في صيغة من الصيغ اختارها هو على طريقته.

غير أن قراءة كتاب إدوار سعيد الجميل هذا لا يشكل لوحده تعريفاً بصاحبه، رغم أنه يفتح الطريق واسعاً أمام القارئ للدخول في عالم هذا المثقف الكبير، العالمي الشهرة. فلكي نعرف جيداً إدوار سعيد علينا أن ندخل في عوالمه جميعها، وهي كثيرة ومتعددة معاً. فهو مفكر من الطراز الرفيع، مفكر حداثي لا يؤمن باليقينيات من كل الأنواع والمصادر والإتجاهات. مفكر نقدي لا يعتبر النقد للواقع وللفكر وظيفة وحسب، أو هواية يتقنها المثقف النقدي. بل هو يعتبر النقد وسيلة لتعميق المعرفة المقترنة بالتقدم وبالحرية، بصفتها في المبدأ وفي الجوهر وسيلة لإسعاد البشر أفراداً ومجموعات وجماعات وشعوباً.

ولد إدوار سعيد في القدس في عام ١٩٣٥. كان والده وديع رجل أعمال مرموقاً. وكان قد غادر فلسطين إلى الولايات المتحدة الأميركية في عام ١٩١١. ثم عاد إلى فلسطين في عام ١٩٢٠. اضطرت العائلة للخروج قسراً إلى مصر في عام النكبة (١٩٤٨). التحق إدوار في القاهرة بـ"فكتوريا كولدج" البريطانية لمتابعة دراسته. لكنه سرعان ما طرد من المدرسة بسبب مشاكسته. وفي عام ١٩٥١ غادرت العائلة مصر إلى الولايات المتحدة الأميركية. تابع إدوار دراسته الثانوية في ولاية ماساشوستس. والتحق بعد ذلك في جامعة برنستون حيث درس مادة التاريخ. ثم انتقل إلى هارفارد لدراسة الأدب المقارن. وكتب أطروحة الدكتوراه عن الروائي البولوني الأصل والإنجليزي الجنسية جوزيف كونراد. أعجب بسيرة كونراد البحار المتمرد الثائر الذي قادته نضالات عائلته ضد القياصرة الروس، ورحلاته

كبحار في جهات العالم الأربع، للوقوف إلى جانب الشعوب التي كانت تضطهدها الدول المستعمرة. تزوج إدوار من سيدة أميركية. ثم أنهى زواجه منها ليتزوج امرأة لبنانية هي مريم قرطاس. كتب أول مقال سياسي له في عام ١٩٥٦ متأثراً بقرار تأميم قناة السويس تضامناً مع مصر، وشاجباً للعدوان الثلاثي عليها. بدأ حنينه إلى فلسطين في أعقاب هزيمة حزيران عام ١٩٦٧. انتخب في عام ١٩٧٧ عضواً في المجلس الوطني الفلسطيني. ودعا في عام ١٩٨٣ المجلس الوطني الفلسطيني إلى تبني مشروع مقاومة مدنية جماهيرية بديلاً من الكفاح المسلح. عارض سياسات منظمة التحرير الفلسطينية في العلاقة مع الداخل ومع الخارج على وجه الخصوص. وفي عام ١٩٩١ استقال من المجلس الوطني الفلسطيني احتجاجاً على ما اعتبره أخطاء فادحة في سياسة منظمة التحرير، سواء في مؤتمر مدريد أم في اتفاق أوسلو. وكان قبل استقالته قد ترجم إلى الإنكليزية خطاب ياسر عرفات في الأمم المتحدة في عام ١٩٧٤، وترجم "إعلان استقلال فلسطين" الذي صدر في عام ١٩٨٨. صدرت له كتب عديدة كان أولها أطروحته عن جوزيف كونراد في عام ١٩٧٦، تبعه كتاب "الإستشراق" في عام ١٩٧٨ و"الثقافة والإمبريالية" في عام ١٩٩٢، وكتاب سيرته "خارج المكان" في عام ١٩٩٨. وله كتب عديدة أخرى أذكر منها: "بدايات" في عام ١٩٧٥، و"مسألة فلسطين" في عام ١٩٧٩، و"تغطية الإسلام" في عام ١٩٨١، و"العالم والنص والناقد" في عام ١٩٨٣، و"ما وراء السماء الأخيرة" في عام ١٩٨٦، و"يوم الضحايا" في عام ١٩٨٨ بالإشتراك مع كريستوفر هنشنتزن، و"تنويعات موسيقية" في عام ١٩٩١، و"السلام في الشرق الأوسط" في عام ١٩٩١، و"صور المثقف" في عام ١٩٩٣.

لفتني في كتاب سيرته "خارج المكان" وفي أحاديث لاحقة له حنينه إلى كل من مصر ولبنان. وهو يتذكر في مصر بإعجاب وتقدير الطبيب الشيوعي فريد حداد ووالده اللذان كانا طبيبي العائلة. وقد علم وهو في الولايات المتحدة الأميركية كيف أن ذلك الطبيب الرائع فريد قد مات تحت التعذيب في عام ١٩٥٩ في أقبية المخابرات المصرية في عهد الجمهورية المصرية، جمهورية ثورة ٢٣ تموز التي قادها

الضباط الأحرار بقيادة جمال عبد الناصر. وفاته أن يشير إلى شهدي عطيه الشافعي القائد الشيوعي الذي مات تحت التعذيب في الأقبية ذاتها وفي العام ذاته. وقد قاده حنينه الدائم إلى مصر إلى القيام بعدة زيارات لها لإلقاء محاضرات وإقامة لقاءات وحوارات مع مثقفين كبار من مثقفي مصر. وتعرف خلال زيارته الأولى إلى الراقصة المعروفة تحية كاريوكا التي كانت تنتمي إلى إحدى التنظيمات الشيوعية. ويتحدث عنها إدوار بإعجاب في مقال له تحت عنوان "تحية إلى تحية": "لقد جسدت تحية كاريوكا في أوج أيامها، بوصفها الراقصة الأكثر روعة، نمطاً خاصاً جداً في الإغراء هو الأشد سلاسة والأقل تصريحاً من بين مجموع الراقصات. وهو –في ميدان الأفلام المصرية– نمط شديد الوضوح للمرأة التي تفتك الناس بسحرها... قد تلجأ بعض الراقصات إلى البهلوانيات، أو إلى السعي على الأرض من مكان لآخر، أو إلى التعري الملطف. غير أن تحية لم تكن تقوم بشيء من ذلك كله، وهي التي توحي رشاقتها وأناقتها بالأصالة والمهابة الكلية. إن المفارقة تكمن في أن تحية كانت تثير الغرائز الحسية على الفور. لكنها كانت في الوقت نفسه نائية يستحيل على المرء أن يقترب منها أو ينالها... لا تنتمي تحية إلى الفئة التي يسهل تعريفها بفتيات البار أو الساقطات. وإنما تنتمي إلى عالم النساء المتحررات اللواتي يتجنبن الحدود الإجتماعية الضيقة أو يزلنها. غير أن تحية بقيت مرتبطة بمجتمعها ارتباطاً عضوياً. ذلك أنها قد اكتشفت لنفسها دوراً آخر وأشد أهمية كراقصة ومغنية. إنه دور 'العالمة' الذي كاد أن ينسى، وهو الدور الذي تحدث عنه الرحالون الأوروبيون الذين زاروا الشرق في القرن التاسع عشر... وتلقب تحية بالعالمة في أفضل فيلم لها، "لعبة الست" (١٩٤٦). وهو واحد من أول أفلامها، ويشترك في بطولته أعظم ممثل وكوميدي عربي في القرن العشرين، وهو نجيب الريحاني الذي يمثل مزيجاً مدهشاً لشخصيتيّ شابلن وموليير. في هذا الفيلم تتبدى تحية راقصة شابة موهوبة فطنة، يستخدمها أهلها الأنذال للإيقاع بالرجال الأغنياء. وأما نجيب الريحاني، الذي يؤدي في الفليم دور المعلم العاطل عن العمل، فمولع بها، وهي تحبه بدورها. لكن والديها يغريانها بالثراء من خلال مكيدة توقع بها أحد

اللبنانيين الأثرياء. وتعود تحية في النهاية إلى الريحاني. وهي عودة تشكل نهاية عاطفية قلّ أن سمحت بها أفلامها الأخرى".

توقفت عند هذا النص لإدوار عن تحية كاريوكا ونجيب الريحاني لأبين أن إدوار مثقف من نوع متميز، مثقف شمولي بمعنى التنوع والتعدد في القراءات والرؤى.

أما حنين إدوار إلى لبنان فيعود إلى الأعوام التي قضاها في ربوع ذلك الوطن الذي أحبه، وأحب أهله وأحب طبيعته، واستمتع بالإقامة في واحدة من أجمل معالمه الإصطيافية "ضهور الشوير". لذلك فحين دخل لبنان في الحرب الأهلية شعر بحزن عظيم.

لكن فلسطين، برغم غيابه الطويل عنها، عادت إليه وعاد إليها بعد هزيمة حزيران. وأحس إحساساً عظيماً بالإنتماء إليها كوطن حقيقي ومتخيل في الآن معاً. وصار منذ ذلك التاريخ، أي بعد ذلك الوعي المتجدد بالإنتماء إلى فلسطين الوطن والقضية، مناضلاً في الدفاع عنها وعن شعبها، في الولايات المتحدة الأميركية بالذات، وفي كل الأمكنة. ووصل الحد بمواقفه الوطنية الفلسطينية والعداء للصهيونية ولسياسات إسرائيل، أن اتخذت منه المؤسسة اليهودية الأميركية موقفاً عنصرياً اتهمته فيه بالفاشية وحرضت عليه وضايقته. لكنه لم يأبه بكل ذلك. وظل يصعّد في مواقفه إلى أن أصبح في ارتباطه بالقضية الفلسطينية سياسياً بالمعنى الحقيقي للسياسي، لكن من موقعه كمثقف حر. وصار، من موقعه هذا بالذات، جزءاً من المؤسسة السياسية الفلسطينية بانتمائه إلى المجلس الوطني الفلسطيني، وقيامه بمهمات تتصل بالقضية الفلسطينية، بتكليف رسمي من منظمة التحرير ومن دون تكليف. وفي ذلك الإنتماء المعلن لوطنه فلسطين صار إدوار صاحب هوية متعددة الأبعاد. فهو فلسطيني بالولادة وبالحنين إلى وطن مستلب، وعربي بالمعنى التاريخي للإنتماء القومي، وأميركي بالحياة والعيش خلال عقود طويلة. لذلك فإن الهوية، بالنسبة إليه، كانت قلقة ومتعددة، أسوة بكثيرين ممن اختاروا العيش خارج أوطانهم طوعاً، أو قسراً بحكم الظروف القاهرة الخارجة عن إرادتهم. وتحولوا بمستويات مختلفة

إلى مواطنين في بلدان لم يولدوا فيها، ولا عائلاتهم كانت تنتمي إليها. وأعرف، إلى جانب إدوار، كباراً من الأدباء والشعراء والفنانين والمفكرين الفلسطينيين واللبنانيين والعراقيين ممن كانوا في الوضع الذي كان فيه إدوار. وأعرف من غير هؤلاء اثنين كبيرين هما عبد الرحمن منيف السعودي بالولادة، وناظم حكمت التركي بالولادة والنشأة والتاريخ. ولإدوار قراءة مختلفة للهوية. فهي ليست بالنسبة إليه وإلى أمثاله ممن عاشوا قسراً في مناف عديدة، بل حتى بالنسبة إلى الذين ولدوا وعاشوا قسراً في أوطانهم على امتداد حياتهم، ليست هوية واضحة ودقيقة ومطلقة. ذلك أن العالم في قراءة إدوار لتحولاته يتجه بسرعة لأن يكون عالماً واحداً، حتى وهو مختلف بين مكان جغرافي وزمان تاريخي وآخر. ويقول في أحد مقالاته في العام ١٩٩٢ بوضوح ومن دون التباس:"أنا فلسطيني وعربي وأميركي. ولا أتعاطف مع انتصار أية هوية من هذه الهويات على الأخرى". يدعو في هذا الصدد نقداً للقوقعة القومية عند بعض العرب "إلى توطيد اتصاله بالعوالم الأخرى وإيجاد الروابط ليستند إلى شاهد فلسفي وأدبي عربي. فنحن في حاجة إلى أن نكون جزءاً من هذا العالم. من الضروري اعتماد فكرة ثقافية ترتكز وتركز على هويتنا. لكن هذا لا يعني التخلي عن إدراك أننا متداخلون في تركيبة هذا العالم ونظامه ودورته. ومن هذا المنظار علينا أن ننظر إلى أنفسنا كعرب". ومخاوف سعيد من عدم تحقيق هذه الرؤية ناتجة عن "عدم وجود مؤسسات في العالم العربي تستقصي حقائق العوالم الأخرى ومن بينها العالم العربي. وقرارنا إما باتجاه بنى ماضوية هشة أو الهجرة نحو أميركا وأوروبا واستبدال مقدسات العروبة والقومية بمعبود جديد: الغرب. إنها مساحة جهل تضعنا أسرى علاقات متوترة تتأرجح بين الشعور بالكراهية والإستلاب الكامل". وينتهي بالقول من دون مواربة بأن"المنفى هو متع لا كآبات فقط. وفي هذه المتع الاندهاش ورؤية الأمور التي لا يراها في العادة من لم يسافر خلف التقاليد المريحة". (هذه الإستشهادات نقلتها من مقال لمي مكارم حماده عن إدوار نشر في جريدة الحياة)

لكن إدوار حين عاد إلى فلسطين، وإلى القدس التي ولد فيها، في عام ١٩٩٣، لم ير فيها القدس التي كان لا يزال يتذكرها. صارت قدساً أخرى. فخرج منها باحثاً عن ذلك الوطن الذي لا بد أن يولد ذات يوم من جديد، حاملاً معه تاريخه وتقاليد شعبه، فلسطين القديمة الجديدة الحرة في ظل دولة حديثة سيدة مستقلة متحررة مما أصابها من وهن بفعل الإحتلال والعنصرية، ومتحررة في الآن ذاته من عصبيات القادة السياسيين الذين لم يعرفوا كيف يناضلون من أجل استعادتها وارتكبوا بحقها وبحق شعبها أخطاء فادحة. فاستقل عنهم واختار أن يكون فلسطينياً على طريقته بصفته الأساسية التي كونت له شخصيته واستقر فيها على امتداد حياته، صفة المثقف النقدي بامتياز.

II

تميز إدوار سعيد بثقافة واسعة، وبقدرة استثنائية على الجمع بين عوالمه المختلفة في النقد الأدبي، وهو متخصص في الأدب المقارن، وفي الفكر بالمعنى الواسع المتصل بالمعارف العامة. وكان إلى جانب ذلك موسيقياً وفناناً تشكيلياً. وهما ميزتان لا أعرف عنهما ما يمكنني الإعتماد عليه في هذا الإستذكار لسيرة إدوار سعيد. وكان أول اقتحام له في ميدان الفكر هو كتابه "الإستشراق" الذي أعطاه شهرته على الصعيد العالمي كمفكر صاحب رؤى تاريخية ومستقبلية تتصل بالعالم. وقد أثار الكتاب جدلاً واسعاً في أوساط المفكرين العرب والأجانب، ترحيباً به ونقداً له من مواقع مختلفة متناقضة. وقد أدرك إدوار أن كتابه وضعه في مكان لم يتوقع أن يقوده إليه بتلك السرعة من الشهرة ومن الإهتمام. لكن النقد أقلقه وأربكه في البداية. وسرعان ما خرج من قلقه وارتباكه ليعيد قراءة أفكاره من جديد توضيحاً وتدقيقاً، وليدخل في نقاش مع مختلف الذين انتقدوه من دون أن تبدو عليه في نقاشاته لهجة التعالي، ولا لهجة الشعور بالهيبة. وأشهد أنني استمتعت في قراءتي للكتاب. بل إنني اندهشت وأنا أتابع تحليلات إدوار فيه للعلاقة بين الغرب والشرق، والمقارنة بين عالمين شاءت التطورات والأحداث التاريخية أن تضع

الغرب في موقع المتقدم الراقي، وتضع الشرق في موقع المتخلف عن ركب الحضارة. إلا أنني، وأنا مندهش مما قرأت، وجدت بعضاً مما رآه بعض النقاد لبعض آراء إدوار المتسرعة المبتسرة، كما لو أنها كانت تخفي موقفاً أيديولوجياً من نوع معين. ولا تعنيني كثيراً ردود أفعال بعض المستشرقين أو بعض المفكرين الإسلاميين. يهمني من هذه الإنتقادات لإدوار ملاحظات ثلاثة مفكرين علمانيين هم صادق جلال العظم ومهدي عامل وعفيف فراج. وأنتقي من انتقادات هؤلاء الثلاثة ملاحظات مهدي عامل بالتحديد التي كرس لها كتيباً يحمل عنوان "ماركس في استشراق إدوار سعيد". ويتمحور نقد مهدي عامل بالتحديد لاستشراق إدوار سعيد حول عدد من المفاهيم في مقدمتها تصنيف إدوار لماركس كواحد من المستشرقين بالمعنى السلبي لكلمة مستشرق. ورغم أنني أؤمن بأن من حق أي مفكر أن يقدم أفكاره التي تكون قد تكونت عنده بالبحث والتفتيش، فإن من حق النقاد أن يقدموا قراءتهم النقدية لتلك الأفكار. يقول مهدي عامل في فصل من كتابه الآنف الذكر بعنوان "ماركس في تأويله السعيدي": "أما ماركس فلقد كان حظه من النقد السعيدي أسوأ بكثير من حظ ماسينيون. فهو لم يحظ بشيئ من الإطراء الذي حظي به هذا الأخير. وما بدا في كتبه عن الشرق أنه استثناء من القاعدة وخروج على الفكر الإستشراقي ليس في حقيقته كذلك. هذا ما يؤكده إدوار سعيد بثقة كبرى لا يرقى إليها شك. ويثبت في كتابه، تأييداً لها، نصاً واحداً لماركس يستخرج منه كامل أحكامه، بقراءة خاصة يحكمها منطق الفكر الذي يحكم فكره–أعني سعيد– في نقده الإستشراق وبنية فكره. فليسمح لنا القارئ، إذن، بإثبات هذا النص لماركس كما ورد بكامله، حتى يتسنى لنا أن نناقش قراءته السعيدية. يقول ماركس: ''الآن بالرغم من الإشمئزاز الذي لا بد أن تثيره في المشاعر الإنسانية رؤية هذه المئات من التنظيمات الإجتماعية ذات النظام الأبوي والكادحة التي لا تسبب أذى، تفك وينحل تنظيمها إلى وحداتها (الأولية) وتقذف الى لجج من المحن، ويفقد أفرادها في الوقت نفسه الشكل القديم من الحضارة الذي عرفوه ووسائل تحصيل قوتهم الموروثة. فلا ينبغي علينا أن ننسى أن هذه المجتمعات القروية الرعوية، مع ما تبدو عليه من المسالمة والبعد عن

الأذى، كانت دائماً وما تزال الأساس الصلب للطغيان الشرقي، وأنها حصرت العقل الإنساني ضمن أضيق نطاق ممكن، جاعلة منه أداة التطير المستسلمة دون مقاومة، ومستعبدة إياه للقواعد والأعراف التقليدية، ومجردة إياه من الجلال كله ومن الطاقات الحيوية التاريخية كلها. لقد كانت انكلترا دون شك في تسببها لحدوث ثورة اجتماعية في الهندستان مدفوعة بأكثر المصالح قذارة، كما كانت حمقاء في الطريقة التي بها فرضت هذه المصالح. لكن هذا ليس السؤال الحق. بل السؤال هو هل يستطيع الإنسان أن يحقق مصيره دون ثورة جذرية في الوضع الإجتماعي لآسيا؟ وإذا كان الجواب بالنفي فمهما تكن الجرائم التي قد تكون انكلترا ارتكبتها، فإنها الأداة غير الواعية للتاريخ في إنجاز هذه الثورة. وإذن، فأياً كانت المرارة التي يتركها مشهد عالم قديم يتهاوى في مشاعرنا الشخصية، فإن لنا الحق في منظور التاريخ أن نهتف بتعجب مع غوته: أينبغي إذن لهذا التعذيب أن يعذبنا ما دام يهبنا متعة أعظم؟ أو تفترس أرواح لا تحصى دون قيد عبر حكم تيمورلنك؟'' (انتهى كلام ماركس) ... ولئن قرأنا الفقرة الأولى من هذا النص بشيء من هدوء العقل، لرأينا أن ما يقف عائقاً في وجه هذا التحرير هو بالضبط تلك 'المجتمعات القروية الرعوية' التي كانت دائماً وما تزال الأساس الصلب للطغيان الشرقي، وهي التي تكبح 'الطاقات الحيوية التاريخية كلها'. هذا يعني أن ضرورة التاريخ تقضي بتقويض هذه المجتمعات حتى يتحرر التاريخ فيتحرر الإنسان بتحريره. ولا سبيل للتاريخ وللإنسان فيه إلى الإفلات من هذه الضرورة التي هي في التاريخ ضرورة الثورة نفسها. من هذا الموقع الذي هو موقع نظر السيرورة الموضوعية للتاريخ في ضرورتها، لا من موقع نظر أخلاقي أو 'إنساني'، ينظر ماركس في حركة تقويض المجتمعات الآسيوية وتفكيكها، وفي العلاقة بين هذه الحركة وبين الإستعمار الإنكليزي، فيرى في انكلترا 'الأداة غير الواعية للتاريخ في إنجاز هذه الثورة'... (وتجدر الإشارة في هذا المجال إلى أن الترجمة العربية للعبارة الأخيرة من هذا النص لماركس ليست دقيقة. فالنص الإنكليزي الأصلي لا يتكلم على 'إنجاز الثورة'، بل حرفياً على الإئتمان بها، أو، كما ورد في الترجمة الفرنسية، على استثارتها).

والآن ماذا يقول التأويل السعيدي؟ لنر ذلك عن كثب. يقول إدوار: والإقتباس الذي يدعم منظومة ماركس في العذاب الذي ينتج المتعة مأخوذ من الديوان الغربي الشرقي. وهو يحدد هوية مصادر تصور ماركس للشرق. وهي مصادر رومانسية بل مسيحانية أيضاً. فالشرق أقل أهمية من حيث هو مادة إنسانية، منه من حيث هو عنصر في مشروع رومانسي للخلاص. وهكذا فإن تحليلات ماركس الإقتصادية تغدو ملائمة تماماً لمشروع رومانسي شائع''.... وتشكل فكرة إعادة الحياة إلى آسيا فاقدة للحياة جوهرياً، جزءاً من الإستشراق الرومانسي الخالص طبعاً. لكن صدورها هنا عن الكاتب نفسه الذي لم يكن ليستطيع بسهولة أن ينسى المعاناة الإنسانية الناجمة، يجعلها مميزة فعلاً. فهي تفرض علينا أن نسأل، أولاً كيف تنتهي معادلة ماركس الأخلاقية للخسارة الآسيوية بالحكم الإستعماري البريطاني الذي يدينه بأن تدفع من جديد في اتجاه المفهوم القديم للتفاوت بين الشرق والغرب الذي كنا قد لاحظناه. وهي تفرض علينا ثانياً أن نتساءل أين ضاع التعاطف الإنساني، وفي أي عالم من الفكر تلاشى لتحل محله الرؤيا الإستشراقية؟".

لست معنياً بالوقوف إلى جانب مهدي عامل بالجوانب الأخرى في نقده لفكر إدوار سعيد. ذلك أنني رأيت في منطق إدوار سعيد الذي أعاد تدقيقه في تعقيباته على التعقيبات، أنه أراد أن يقرأ تاريخية وواقعية التفاوت بين الشرق والغرب، من دون أن يلتقي مع هننكتون في مقولته صدام الحضارات. بل هو يختلف معه اختلافاً جوهرياً. فإدوار سعيد يريد أن يوجه نقدين في الآن ذاته، نقداً لتعالي الغرب، من موقعه المتقدم، على الشرق، ونقداً للمستشرقين من دون تمييز بينهم –وهو خطأ عند إدوار– في تبنيهم ذلك الموقف المتعالي، ونقداً للشرق لأنه لم يتحرر من تخلفه، ونقداً لمفكريه لأنهم لم يمارسوا دورهم في رفض الإستبداد السياسي والأصولي، كما فعلت أوروبا في عصر النهضة بتحريرها الدولة من سلطة الإستبداد الديني، وما فعلت في عصر الأنوار بتحرير الدولة من الإستبداد السياسي. ويؤكد إدوار في

تعقيباته على أن وحدة العالم لا تفرق بين غرب وشرق، حتى وهي ملأى بالتناقضات، في ظل ظلم واستعباد واحتلال وقهر يمارس من جانب القوى الكبرى ضد الشعوب الطامحة إلى حريتها.

يتوقف الناقد المصري صبري حافظ في مقال كبير وشامل مكرس لفكر وسيرة إدوار سعيد عند كتاب "الإستشراق" وعند الشروط التي أعطت الكتاب أهميته. ويبدأ مقاله بنص لإدوار سعيد يحدد فيه موقفه كمثقف. يقول إدوار: "إني كمثقف أعرض هواجسي أمام جمهور أو جماعة معينة. لكن الأمر لا يقتصرعلى كيفية إفصاحي عنها، وإنما يتعدى ذلك إلى ما أمثله أنا أيضاً، من حيث كوني شخصاً يحاول ترقية قضية الحرية والعدالة. فأنا أقول هذه الأمور أو أكتبها لأنها تمثل، بعد كثير من التفكر، ما أعتقده، ولأنني أريد أن أقنع الآخرين بهذا الرأي. لذلك نجد هذا الخليط المعقد جداً بين العالمين الخاص والعام، تاريخي الخاص وقيمي وكتاباتي ومواقفي كما تصدر عن تجاربي من جهة، وطريقة انخراط هذه كلها في العالم الإجتماعي الذي يتناقش فيه الناس ويتخون قرارت في شأن الحرب والحرية والعدالة من جهة أخرى".

وبعد أن يخوض طويلاً في الحديث عن إدوار سعيد وعن التحولات في حياته الشخصية والفكرية يتوقف صبري حافظ عند موقف إدوار في كتاب "الإستشراق" وفي كتبه وكتاباته عن المثقف، يقول: "ومثلما دعا إدوار سعيد الشرق في كتاب "الإستشراق" إلى تحليل نفسه والإفصاح عن ذاته فهو هنا يدعو إلى تحرير الناقد من الإعتقاد بقدسية النظرية. وقد لاحظ إدوار أيضاً أن ثمة في العالم العربي هذا الإعتقاد المنحاز إلى النظريات الموصدة والتعليم الأعمى لها من دون جهد واضح لتغيير هذه النظريات إلى شيئ ذي صلة بالثقافة العربية".

لكن الأهم هو أن نقرأ ما قاله إدوار ذاته في كتابه الذي حمل عنوان "تعقيبات على الإستشراق": "حروب الله كثيرة هذه الأيام. وأعداء الله كثر أيضاً. ومن أجدر بمتابعة هذا الوطيس أكثر من المستشرقين المحترفين (ذوي الباع الطويل في فهم 'الشرق' و'الإسلام' و'العرب')، وتلامذتهم من

أنصاف وأرباع المستشرقين (ذوي الباع الطويل أو القصير في خدمة السياسة والسياسات اليومية قبل العلم والمناهج التعليمية)؟ ومن المخول أكثر منهم بمتابعة ذلك الوطيس المحتدم وفق صيغة تتجاوز استباق الأكثر للكثير، لتبلغ حدود استباق الحاضر للغد، بعد شطب تسعة أعشار الماضي بجدله وأثقاله وظلاله؟ برنارد لويس إمام المستشرقين المعاصرين غارق حتى أذنيه في تقصي أثر الأصولية الإسلامية. على سبيل المثال الأقرب إلى الإمتياز الأثير من مساجد طهران إلى حجرات الوعظ في لوس أنجلوس، ومن حسينيات الجنوب اللبناني إلى طوق التتار التاريخي القديم في روما. ومنذ أن وضعت حرب الخليج الثانية أوزارها والرجل يتابع عظائم امور العالم الإسلامي مثل صغائرها، ويربط الأهوال بالسفاسف، ويستخرج لنا عوارض الرعب والإرهاب التي زرعها العثمانيون عند أسوار فيينا عام ١٦٣٨، وتولاها بالرعاية والسقاية أشخاص مثل رشيد عالي الكيلاني والحاج أمين الحسيني، وأتت أكلها في عهد جمال عبد الناصر ثم الخميني ثم صدام حسين ثم .. الشيخ عمر عبد الرحمن! ولقد رأينا العالم الوقور يغفر لمجلة وقورة مثل 'أميركان سكولار' أنها بدلت عنوان دراسته المسماة 'أزمة الشرق الأوسط في منظور تاريخي' إلى عنوان أكثر إثارة وصخباً هو 'من يحتاج إلى صدام حسين'، أو مجلة 'أتلانتك مانثلي' نشرت دراسته 'جذور السخط الإسلامي' مزينة برسم مريب لمسلم منكب على تلاوة القرآن وخلفه حية تسعى للإنقضاض عليه وجلدها مرقط بالعلم الأميركي؟ ولكي يسهل التحرير مهمة القارئ (أو يختزل المادة العلمية الثقيلة إلى برشامات قراءة يسهل ابتلاعها وهضمها) سارت المقتطفات المنتزعة من النص والمطبوعة بالبنط العريض على النحو التالي:''إذا كان المقاتلون في حرب الإسلام، المجاهدون في سبيل الله، يقاتلون لرفع راية الله، فالنتيجة المنطقية التالية هي أن خصومهم يقاتلون ضد الله''، أو ''القادة الأصوليون ليسوا على خط يؤمن بأن الحضارة الغربية هي التحدي الأكبر أمام طريقة العيش التي يريدون الحفاظ عليها أو إحياءها''.".

إلا أن إدوار سعيد المثقف النقدي، الذي أشارت كتاباته وكتبه إلى أنه صاحب مشروع ثقافي حداثي، قد أعطى توصيفاً للمثقف حدد فيه موقعه ودوره ووظيفته مضيفاً إلى ذلك نقده للمثقف العربي، وللمثقف بشكل عام. وقد ضم كتابه "صور المثقف" الكثير من أفكاره في هذا الصدد. يقول إدوار في الفصل الأول من الكتاب بعنوان "صور المثقف": "هل المثقفون فئة كبيرة جداً من الناس، أم نخبة رفيعة المستوى، وضئيلة العدد إلى أبعد حد؟ ثمة تناقض في الجوهر حول تلك المسألة بين اثنين من أشهر الأوصاف التي أطلقت على المثقفين في القرن العشرين. فالماركسي الإيطالي أنطونيو غرامشي، وهو المناضل والصحافي والفيلسوف السياسي اللامع الذي سجنه موسوليني بين عامي ١٩٢٦ و١٩٣٧، كتب في "دفاتر السجن" أن بإمكان المرء القول 'إن كل الناس مثقفون، لكن ليس لهم كلهم أن يؤدوا وظيفة المثقفين في المجتمع'. وتشكل سيرة غرامشي ذاتها نموذجاً للدور الذي عزاه إلى المثقف: إذ كان، وهو العالم المتخصص في فقه اللغة، منظماً لحركة الطبقة العاملة الإيطالية. كما كان، في كتاباته الصحافية، أحد أكثر المحللين الإجتماعيين المولعين بالتأمل والتفكير عن وعي وإدراك. ولم يكن هدفه إنشاء حركة إجتماعية فحسب، بل أيضاً تشييد بنية ثقافية كاملة مبرتبطة بهذه الحركة".

ويقول إدوار في مقال نشرته مجلة "الثقافة الجديدة" بتاريخ ١٩٩٣ حول المثقف: "ليس ثمة في الوجود شيئ اسمه مثقف خاص منعزل. فمنذ أن تدون الكلمات وتنشرها تجد نفسك قد دخلت الميدان العام. كما لا يوجد مثقف عام وحسب، امرؤ يقوم وجوده في أن يضطلع بدور المتحدث، أو الناطق أو الرمز لقضية، أو حركة، أو موقف. فثمة دوماً نبرة شخصية ورهافة خاصة تسبغان دوماً المعنى على ما يقال أو يكتب، ولا ينبغي للمثقف قط أن يسعى إلى إرضاء المستمع أو المستمعة. فالقضية أصلاً أن على المثف أن يشيع الحرج، الإعتراض، بل حتى الإمتعاض. هل المثقفون مجموعة كبيرة جداً، أم مجموعة صغيرة، منتقاة ومصطفاة بعناية بالغة؟ هناك توصيفان شهيران، وهما أشهر توصيفين في القرن العشرين لماهية المثقف، وهما متعارضان تعارضاً جوهرياً في هذا الخصوص... إن المثقفين هم أناس

يمثلون ليس فقط حركة اجتماعية كبيرة أوالفئات الدنيا، بل يمثلون أيضاً أسلوباً مميزاً لاذعاً للحياة وللأداء الإجتماعي مما يتفردون به. ترى أين نجد التحديد الأمثل لهذا الدور خيراً مما نجده في بعض الروايات الإستثنائية للقرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين: 'الآباء والبنون' لتورجنيف، 'تربية عاطفية' لفلوبير'، 'صورة الفنان في شبابه' لجيمس جويس. فهنا نجد تمثلات الواقع الإجتماعي متأثرة تأثراً عميقاً، بل محورة تحويراً حاسماً بفعل الظهور المفاجئ لفاعل جديد، هو المثقف الشاب الحديث... لكن ما الذي يمثله المثقف اليوم؟ إن من أفضل وأنزه الأجوبة عن هذا السؤال هو الجواب الذي قدمه السوسيولوجي الأمريكي س.رايت ميلز، وهو مثقف شديد الإستقلالية يحمل رؤية اجتماعية رصينة ويتمتع بقدرة مميزة على إيصال أفكاره بواسطة نثر صريح وأخاذ. وقد كتب في عام ١٩٤٤ أن المثقفين المستقلين كانوا يواجهون إما نوعاً من إحساس قانط بالعجز بفعل موقعهم الهامشي، أو نوعاً من الميل إلى الإندماج بالمؤسسات، والشركات والحكومات كأعضاء في مجموعة صغيرة نسبياً من أصحاب البيت الذين اتخذوا قرارات هامة على مسؤوليتهم الخاصة بدون أي شعور بالمسؤولية".

لكن إدوار الذي ينتقد تحجر النظريات وتحجر انتماء المثقفين إليها في عالمنا العربي، يقول في إجاباته على أسئلة صبحي الحديدي حول الفكر الماركسي وحول الماركسيين: "... لم أكن في يوم من الأيام متأثراً بالفيلسوف الفرنسي ألتوسير، رغم أنني قرأته، بل قرأت كل ما كتبه. لكنه لم يحركني. وأدركت في أواخر الستينات أن اكتشافي لكتابات أنطونيو غرامشي كان أكثر أهمية عندي، فضلاً عن استمرار اهتمامي بأعمال لوكاش الأولى مثل 'نظرية الرواية' و'الروح والأشكال' ومقالاته المبكرة عن المسرح. وأعتقد أن لوكاش شخصية فذة كبيرة.... أعتقد أننا لم ننل قسطنا بعد من سيرورة التنوير والتحرر بالمعنى الفكري. وأعتقد أن اللوم يقع على المثقفين، إذ ليس في وسعنا أن ننحي باللائمة على الإمبريالية أو الصهيونية فقط... أشعر أن الماركسيين، من النوع الذي اقترنت به، قد تخلوا عن الماركسية هم أنفسهم، فباتوا ما بعد–ماركسيين ومحافظين جدداً واستهلاكيين أو تحريفيين، إلى آخره.

وهكذا فإن المسألة عندي هي نفخ الحياة في خطاب معارض مهم، يقع على عاتقه اليوم واجب العثور على بدئل للأيديولوجيا الماركسية، وللوضعية الجديدة كما يمثله أشخاص من أمثال ريشارد رورتي، وللنظرة القدرية التأملية للعالم، والتي تكتسح العديد من المثقفين هذه الأيام".

III

لقد قرأت معظم كتب إدوار سعيد والكثير الكثير من كتاباته وحواراته التي عالج فيها مختلف المواضيع الفكرية والثقافية وحتى السياسية. وتكونت لديّ معرفة كبيرة به وبأفكاره، لكنها لم تكن معرفة كافية ونهائية بمشروعه الثقافي. وما زلت بحاجة إلى أن أعيد قراءته. لكنني، وأنا أقدر جهده الفكري، لا أنضم إلى أولئك الذين جعلوا منه أسطورة. فهو قامة ثقافية كبيرة من دون شك. واستحق في حياته وبعد رحيله كل التقدير. لكن الإنطباع الذي تولد عندي من مجمل قراءاتي لكتبه ولكتاباته وللحوارات التي أجريت معه، أنه كان ما يزال يبحث ويفتش، غير مكتف بما توصل إليه من أفكار واستخلاصات من قراءته لمجرى التطور الذي كان يشهده العالم على امتداد القرن العشرين. وتلك في رأيي واحدة من ميزات إدوار سعيد، أعني عدم الإكتفاء والإبتعاد عن اليقينيات، رغم كل ما كان واضحاً من اعتداد عنده بنفسه وبقدراته، من خلال ما كان يقدمه من آراء ومواقف حول مجمل قضايا بلاده وقضايا العصر.

تعرفت إلى إدوار سعيد في عام ١٩٧٨ في مؤتمر جمعية الخريجين العرب الأمريكان الذي عقد في مدينة مينيابوليس في الولايات المتحدة الأميركية. كنت أشارك في المؤتمر مع بعض قادة الحركة الوطنية اللبنانية الذين لبوا الدعوة لحضور المؤتمر، وقاموا بجولة في أنحاء الولايات المتحدة الأميركية لإلقاء المحاضرات واللقاء مع العرب المقيمين فيها ومع عدد من المسؤولين الأميركيين. ثم تكررت لقاءاتي به في مناسبات أخرى في الولايات المتحدة الأميركية بالذات، ثم في لبنان. لكن اللقاءات، برغم تعددها، لم تكون بيننا علاقة صداقة بالمعنى الحقيقي. كنا نتبادل الأحاديث في شتى القضايا، ثم يذهب

كل منا إلى عالمه من دون تواصل بيننا كما يفعل الأصدقاء. وكنت أتابع بواسطة الأصدقاء المشتركين نشاطاته ومساعيه لمداواة سرطان الدم الذي أصابه في مطالع العقد الأخير من القرن العشرين. وأذكر أننا التقينا في ذات يوم من العام ذاته الذي غادر فيه إدوار الحياة (٢٠٠٣) في منزل الأديب اللبناني الياس خوري للبحث في تأسيس جبهة ثقافية عربية تعطي للمثقف العربي دوراً في مواجهة ما يصيب العالم العربي من مصائب وأعراض مرضية من شتى الأنواع. شارك في اللقاء إلى جانب إدوار سعيد والياس خوري كل من عبد الرحمن منيف وسمير قصير وفواز طرابلسي وشفيق الحوت وكاتب هذه السطور. تباحثنا في الموضوع، وكلفنا الياس خوري كتابة نص يوجه إلى عدد من المثقفين لكي يقرأوه ويعدلوا فيه، ويكون بمثابة دعوة لمئة مثقف عربي للإلتقاء فيما يشبه المؤتمر لتأسيس جبهة ثقافية ديمقراطية. قرأنا النص وقررنا إعادة صياغته. وتشكلت لجنة لإعداده من جديد. ودّعنا إدوار قائلاً لنا إنه سيعود بعد شهر أو أكثر قليلاً، وبعد عودته نعود للإجتماع ونقرأ البيان ونبدأ في الإعداد للمؤتمر المشار إليه. لكن إدوار ذهب ولم يعد إلينا إلا بروحه وبفكره. غادرنا إلى الأبد وترك لنا تراثه الغني، وأملاً كان حريصاً على التأكيد عليه، أملاً بمستقبل أفضل لبلداننا وللعالم، وأملاً بالإرتقاء بدور المثقفين في صنع هذا المستقبل. وبعد عام من غياب إدوار غاب كل من سمير قصير وعبد الرحمن منيف وتبعهما شفيق الحوت. وهكذا انقطع الحديث حول المؤتمر. وهذا ما حصل في عام ١٩٨٢ عندما التقينا في منزلي للبحث في الموضوع ذاته. حضره حسين مروة ومهدي عامل ومحمود درويش وفيصل دراج وفواز طرابلسي ومحمد دكروب وياسر عبد ربه وغاب آخرون. لكن ذلك اليوم كان بداية الغزو الإسرائيلي للبنان. فتفرقنا وانتهى الحديث عن ذلك المؤتمر اليتيم.

ذلك هو إدوار سعيد المثقف الفلسطيني اللبناني المصري الأميركي الكبير في قراءتي له وفي التراث الغني الذي تركه لنا تأكيداً لحضوره الدائم.